

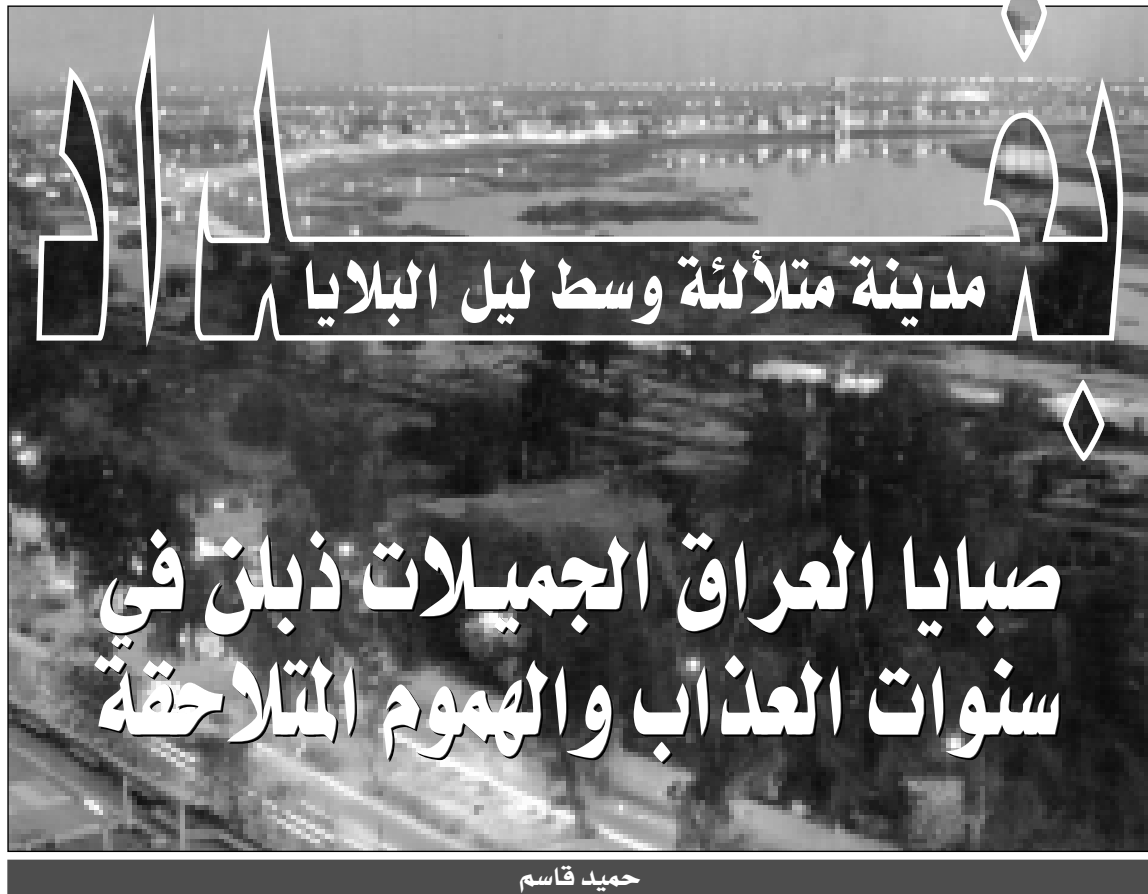
الحسابات والتكهنات والتقديرية وفي سعيهم هذا وضعوا عشرات التواريخ موعداً لحرب يقولون انها ستقع حتماً في البدء قالوا انها ستنتش في سبتمبر الماضي، وتحديداً اليوم الحادي عشر منه تزامناً مع الذكرى الأولى لحدث نيويورك وواشنطن ولما لم تحدث الحرب قالوا انها ستحدث قبل رمضان، ولما قدم رمضان قالوا انهم - أي الأميركيين - لن يغامروا بالحرب في رمضان، وزادوا انهم سينالون فرصة ان يعيدوا حتى انقضى عيد الفطر المبارك، مرة أخرى حدوداً ليلة 16 - 17 يناير موعداً للحرب باعتبارها ذكرى بدء حرب الخليج الثانية 1991م أما الآن فكلهم يقولون ان الحرب ستقع قريباً بعد انقضاء موسم الحج وعيد الاضحى المبارك، فالأميركيون - كما يقولون - يحاولون ألا يثيروا أو يستفزوا مشاعر العرب والمسلمين، وبهذا ربما يكون هذا العيد آخر عيد نحتفل به قبل ان تنتش الحرب ويستعر أوارها.

أغلب من التقيتهم سواء من النخبة أو عامة الناس يميلون الى الاقتناع بأن الحرب ستحدث، وان عدم حدوثها سيكون معجزة، ولم يعد الأمر سرا يتداول في الخفاء، بعد ان اشار السيد طارق عزيز نائب رئيس مجلس الوزراء الى هذه المسلمة قبل شهرين، غير أن السؤال الذي يستتبع هذا اليقين هو ثم ماذا؟ كيف يتصور العراقيون السيناريو الذي ستأخذه مجريات الحرب، يقول أحد المثقفين: - مع انني لست مختصاً بالاستراتيجية العسكرية، إلا أن هذا الأمر باعتباره شأن حياتنا وجودنا ومصيرنا قد حتم علينا متابعة الاخبار ومحاولة تحليل الوقائع واحتمالاتها بقدر ما يتاح لنا من معرفة بما يحدث نعلم جيداً ان الأميركيين يحشدون منذ أشهر قواتهم ويوارجهم في المنطقة فضلاً عن قوادهم المحيطة بالعراق في تقديره ان ليس أمام العراق سوى القتال ماذا سيحدث؟ كيف ستدور رحى المعركة وأين؟ لا أعلم.

إنها حرب إعلامية!

من جانب آخر يرجح عدد آخر من العراقيين ان الحل السياسي ربما سيكون الأقرب في اللحظات الحاسمة التي يسمونها اللحظات الأخيرة قبل اشتعال فتيل الحرب، ويقول أحد هؤلاء:

- اعتقد، وهناك كثيرون مثلي، ان كل ما تشهده المنطقة من مظاهر التصعيد وزيادة الحشود العسكرية وشحن الأسلحة والمناورات هو جزء من حرب نفسية منظمة قوامها الاعلام، ولدي من القناعة ما يرجح في ذهني الحرب في جانب كبير منها حرب اعلامية، يعول الأميركيون من خلالها على فكرة كسب الحرب، أو تحقيق مطامعهم دون اطلاق صاروخ واحد، واعتقد أيضاً انهم ينصرون ان هذه الحملة الاعلامية ستخلق ضغطاً كبيراً على القيادة أملاً بتراجعها أو تقديمها ما يريده الأميركيون ولا يقف الأمر عند حدود نزع أسلحة الدمار الشامل التي يزعمون وجودها لدى العراق، بل يمضي الى ما هو أبعد من ذلك: تغيير خارطة المنطقة السياسية بتغيير انظمتها من خلال اعلانهم الواضح الذي يكشفون عنه جهاراً وهو تغيير النظام وما طرحته الإدارة الأميركية واضح تماماً بخصوص إعادة تأهيل المنطقة العربية وفق معاييرهم أو قياساتهم، واذكر لك ان من الممكن ان تحل الأزمة بدون حرب، ولكن ليس بهذه الطريقة، بل عن طريق الحوار والتزام الأليات التي اقترتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومنها مواصلة فرق التفتيش اعمالها القائمة حالياً.



صبايا العراق الجميلات ذبلن في سنوات العذاب والمهموم المتلاحقة

حميد قاسم

الجميلات اللواتي يذبلن في سنوات العذاب والمهموم المتلاحقة وإذ أصافحها مودعها، ألمح في عينيها المنطفئتين حجم الخسارات التي تنوء المرأة بحملها بصبر عجيب وخلال الأيام التي مضت قابلت العشرات، بل المئات من النساء العراقيات اللواتي غادرن دفة بيوتهن ونزلن الى سوق العمل ليعين كل ما يتاح لهن بيعه بحثاً عن لقمة شريفة نقي الأبناء ذل الجوع والسؤال: بيع الخضروات، أو الملابس المستعملة، أو منتجات الألبان، وحتى بيع الشاي على قارعة الرصيف للعابرين وخلف العبايات السود التي تلوح في الشارع مثل رايات الأسمومة المقهورة تنواري آلاف الحكايات عن أزواج مفقودين أو مقتولين أو أسرى في الحروب، أو أبناء مقعدين بسبب المرض أو الإعاقة، وحكايات أخرى عن أبناء يواصلون دراستهم وآخرين هجروا مقاعد الدراسة لإعانة الأبوين في مهمتهم لإعالة الأسرة ومواصلة الأبناء الأصغر سناً لدراسهم نهاية شارع النهر تعيدني ثانية الى سوق المتنبني ومقهى الشاهيندر وحيث أحاديث الأديباء والمثقفين وتحليلاتهم وتنظيراتهم لا تنتهي متى تنتش الحرب؟ ماذا سنفعل يا فلان؟ كم ستستمر؟ ما هي السيناريوهات؟ كيف تتوقعون ان تكون المواجهة؟ ماذا سيستخدمون في الحرب من أسلحة؟ هل ستقع حرب شوارع في بغداد؟

تفزعني الكلمة الأخيرة انظر بكل ما في من شجن الى شوارع بغداد الى تاريخها مبانيها مقاهيها شعرائها أكاد ألمح في جدران البيوت والجوامع وزجاج المحال وجوه الرصافي والجواهري وأبي نواس والسياب والبياتي ورعد عبد القادر وغيرهم أرفع بصري صوب نصبها البرونزية المخضرة أنخيل ما كان يدور من حديث حول حرب الشوارع في مدينة السلام ويدهمني الفزع مرة أخرى. يقول أحدهم: الحرب قادمة! يهتف آخر: من يدري؟ ربما تحدث معجزة فلا تندلع النيران!

يتمتع الآخرون: ربما من يدري يا ليت ماذا نريد سوى ان نعيش بأمان مثل باقي خلق الله؟

العراقيون والنوم والحرب

لا أحد من الناس يدري في العراق، حين يمضي الى النوم، هل انه سينام ليلة أخرى في فراشه أم انه سيصحو في ايام ساعة - تختارها الاقدار - على اصوات الانفجارات ودوي الصواريخ وقنابل القاصفات العملاقة، لتمطر سماء العراق قنابل وصواريخ وانفجارات متلاحقة تعلن عن حرب جديدة في هذا الوطن المنكوب بالحروب والحصار ونفطه وثرواته واستحقاقات السياسة والمصالح والاهواء.

كل يوم يمضي دون ان تندلع الحرب، يحسبه العراقيون هبة من الله، لتبدأ

يدعى شارع البنات لأنه كان حتى نهاية الثمانينات مختصاً بكافة محاله ببيع ازياء النساء وحقائهن وكافة مستلزمات زينتهن فضلاً عن محال الذهب فيه اكتشف ان محاله الشهيرة مثل الأفراح و عالم الطفل اصبحت رثة بديكوراتها القديمة التي لم تجد منذ عقود، وبثيابها المعروضة - وأغلبها محلية الصنع - فيشير مرافقي الى ان الفتات هجرن الشارع الى العرصات حيث المحال الحديثة بازائها وبضائعها المستوردة التي تباع بالدولار أو اصل مسيرتي محاولاً استعادة زمان أقل نجمه وتوارى خلف دخان الحروب وغبار الحصار الميرير لا أحد يرتاد الشارع سوى بعض الموظفين والعوانس اللواتي جئن مثلي لاستعادة أمجاد ماض غابر هو ماضي شبابهن المنصرم، في نظراتهن ألمح نظرات رثاء حار لكل ما مضى وقلق مما سيقدم الآن أو بعد ساعات أو أيام قليلة بالمصادفة ألمح زميلة قديمة في الجامعة، وبالكاد تتعرف علي نستعيد معا حماسها ونشاطها ومشاركاتها في المنتدى الثقافي لكلية الآداب، فترد بابتسامة ساخرة: لم يبق من ذلك شيء سوى الألم، ووحدتي بعد ان توفيت أمي بعد أبي، وتزوج اخوتي، فيما سافر البعض الآخر الى بلاد الله الواسعة.

- وبعد لا شيء أفكر في بيع بيت أبي بعد ان تنازل اخوتي لي عنه، سأشتري داراً صغيرة اقضي فيها ما تبقى لي من عمرها أنذا اضحك على نفسي بمواصلة الدوام في وظيفتي مدرسة في ثانوية للبنات أطالع صوري القديمة وذكرياتي التي لا أمك سواها وأموت يوماً آلاف المرات معذبة بوحدتي وخوفي من أن أموت فلا يعلم بي أحد من الناس وتحكي لي الزميلة القديمة عن الصديقات اللواتي ماتت أزواجهن، ومن ترك لهن الأزواج أولاداً يتامى كبروا الآن وشبوا على مفردات الحرب والحصار والفاقة والأمراض وعن الصبايا



في مهرجان المرید بالوصول وبحركة موحية يسأل عن الواصلين فتجيبه فتاة في سكرتارية المهرجان لم يأت سوى قلة من المدعوين! سابقاً كانت الوفود بالعشرات وكان في ذلك بعض العزاء لأديباء العراق الآن ليس لنا سوى ان نقول أه من قلة الزاد ووحشة الطريق!

الحياة تمضي

أداء الإعلام العراقي والمؤسسات الحكومية لا يشير الا لشيء واحد: الحياة تمضي لا شيء غير طبيعي وكان الجهد يسير باتجاهين في أن معاً الحرب والسلام ومع القناعة بأن عدم وقوع الحرب معجزة فإن برامج الاذاعة والتلفزيون واعلانات المناقصات والمشاريع الحكومية، وتوقيع الاتفاقيات، لا تشير الا الى حياة طبيعية تماماً، باستثناء اخبار اجتماعات القيادة العراقية، والاعلان عن سير أعمال لجان التفتيش انموفيك اليومية

البمبش والحرب وذبول النساء

بمحاذاة سور السفارة البريطانية يحدو الشارع نزولاً الى شاطئ نهر دجلة في محلة باب السيف التي أخذت اسمها من السيف أي شاطئ النهر، حيث الشريعة التي يزدحم عندها صيادو السمك وعبرات الزوارق المتهادية بين جانبي بغداد القديمة اقف ساعة منخياً أمجاد هذه المدينة ومغانمها القديمة أيام كانت عاصمة الدولة الاسلامية أتذكر خلفاءها وشعراءها وبيوتها وأساطيرها السحرية عن ألف ليلة وليلة والسندباد والبساط السحري.

أصعد زورقاً عائداً باتجاه الرصافة، حيث يتبادل العابرون - بلا أدنى معرفة - أخباراً نزيهة سمعوها من هنا وهناك عن حالة التصعيد، حيث تخلي كثير من العراقيين عن متابعة الأخبار عبر الاذاعات العالمية وتركوا مصيرهم بين يدي الأقدار، واتجهت قلوبهم الى الله سبحانه وتعالى، قال أحدهم ان الدولار قد ارتفع سعر صرفه، حتى بلغ اليوم ألفين ومئتين وأربعين ديناراً! تساءل آخر: ماذا؟ هل هناك أخبار جديدة؟ فأجاب صاحب المعلومة: لا بد أن الأخبار سيئة ونحن لا ندري في أي ساعة تدهمنا الطائرات والقنابل رد الثاني: خليها علي الله الله كريم ونعم بالله تتمم الأول واشترك الجميع في تبادل الآراء والتحليلات وآخر الأبناء عن الحرب وضحاياها المحتملة والنقط والاميركيين حتى وصلنا الضفة الأخرى من دجلة وسط الأدمية والأمنيات الله يحفظنا ويحفظ أمة محمد.. آمين.

شارع البنات

أدور في جنبات شارع النهر الذي كان

هذا الملف مشاهدات ميدانية، تروي تفاصيل الحياة الاجتماعية والثقافية داخل بغداد على اعتبار انها ممثلة للعراق الدولة والشعب الحاضر والماضي، فيها تبدو السياسة طاغية عما عداها من القضايا الأخرى، تظهر في كل شهادة يدلي بها المواطن العراقي في مختلف المواقع حول الحرب ببشاعتها ودمويتها، وكأن سنوات الحصار التي مرت لم تكن كافية، والشهادات بها تبث صراخات الألم من جور هذا العالم، منبهة على ان موقف المتفرج لن يفيد بعد الآن، انها رحلة مؤلمة داخل الذات والوطن، تكشف عن القضايا الخاصة والعامة لجهة الداخل، وصعوبة الفصل، وأمل ايجاد الحلول، جاءت عبر زمن دام شهراً كاملاً هناك لتقل لكم مشاهدات حية لقصة محزنة أن لها أن تصل الى النهاية بعد العد التنازلي الذي بدأ منذ شهور وابتصار هي

رحلة في العراق عبر بغداد، قبل أن تعصف الصواريخ.

قلب مثقوب

انها حيرة المحنة بين أن تنظر بعيني صحافي محابذ وان تؤكد معرفتك بمحنة وطن تنتمي وتنسب إليه، أن تتلمس وجع الناس وتتحرق حقيقة ما يدور فيهم وحولهم، وان تشرك الآخرين في تلمس الكارثة، مزيجاً عنها غلالة عاطفتك وأشجانك ومشاعرك الوجدانية ها أنذا كما قال الشاعر يوسف الصائغ: لا أنظر من ثقب الباب الى وطني لكن من قلب مثقوب! كان السؤال الأهم الذي يدور في أعماقي قبل ان أدخل العراق، هاجسا ملحا يتضخم في ذهني باشكال مختلفة، يتركز في جملة واحدة ما الذي يدور في أذهان الناس عما يجري حولهم ويخطط لهم؟ هذا ما رددته مرة أخرى مع نفسي حينما بدت لنا بغداد مثل ماسة متلازمة وسط ليل البلبايا، عندما بدأت الطائفة بالهبوط تدريجياً وطيلة مدة بقائي هناك، كنت أبحث عن اجابة لهذا السؤال في وجوه الجميع بدءاً من موظفي المطار مروراً باصدقائي وأقاربي والناس الذين كنت التقيتهم في الشوارع والمقاهي والمحال والأسواق والمؤسسات الاعلامية وسيارات الأجرة كان الأمر مثل لغز غامض عصي على التفكير والتحليل واستشفاف الاجابة الشافية عنه، وبالمقابل كان سؤال الناس الأوضح: ماذا يجري هناك؟ ماذا يقولون عنا؟ ويعنون بذلك مصيرهم وحياتهم والحرب التي تقف متأهبة على الأبواب!

في مقهى الشاهيندر

هكذا ينبري أحد الجالسين في مقهى الشاهيندر الذي تؤمه جموع الأديباء والمثقفين صباح كل يوم جمعة، والمنزوي في نهاية شارع المتنبني، شارع الكتب الشهير وفي المساء يصطحبني الأديب ذاته الى فندق فلسطين ميرديان الضخم حيث بدأت وفود المشاركين

